الأستاذ الدكتور عاطف العراقي
ومنهجه النقدي

الأب أ. د. جوزيف سكاتولين
أستاذ التصوف الإسلامي
بالمعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية
بروما P. IS. A. I

إن الدكتور عاطف العراقي ليس بالنسبة لي مجرد اسم مكتوب على بعض الكتب، لا أعرفه إلا من خلال أفكاره ونظرياته وسطوره المليئة بالمعاني المختلفة، منها الواضحة ومنها الغامضة. إنما أعتبر الدكتور عاطف العراقي من أقرب أصدقائي، حيث إني عشت معه فترة طويلة من حياتي، تبادلنا خلالها الكثير من أفكارنا وهمومنا أمام الإشكاليات الكبرى التي تواجهُها إنسانيتنا المعاصرة، باحثين عن أسبابها وعواقبها، وأخطارها وحلولها، وخاصة عن المستقبل الغامض الذي يحوِّم فوق كوكبنا الأرض. فهذه الهموم المشتركة هي التي قوَّت رباطنا الإنساني، فلا رباط بين البشر أقوى من الاهتمام المشترك بمصيرنا البشري، رفقلً للقول المشهور للمفكر الروماني ترنتيوس (Terentius) (القرن الثاني ق.م.): "إنما أنا إنسان فيهمُّني كل ما يهم الإنسان".

وما أحوجنا في هذا الزمن"، زمن العولمة"، إلى مثل هؤلاء الناس أصحاب أنسنة حقة لفكر مستنير، مترفعين عمَنْ كان يسميهم الدكتور عاطف العراقي بـ"أشباه المثقَفين"، الذين أشبه بالبَبَغاوات المرددة دائمًا للأفكار التقيلدية الرجعيّة نفسها، بعيداً عن الأذهان المبدعة الخلاقة والأفكار المتجددة الحرة.

١- صلة عبر الأيام

١-١ في الخرطوم: فيما بين سنة ١٩٧٣-١٩٧٨

والواقع إنني كنت قد قابلت الدكتور عاطف العراقي منذ زمن بعيد.فأول مرة تقابلنا فيها كانت في الخرطوم، وبالضبط في جامعة القاهرة، فرع الخرطوم، بين سنة ٧٣-١٩٧٨، في بداية تجوالي الطويل في العالم العربي الإسلامي. حينذاك كان د. عاطف العراقي، من بين الأساتذة الوافدين من القاهرة إلى الخرطوم لفترة تدريسية معينة، كان هو يدرس لنا الفلسفة الإسلامية. وقد أعجبني أسلوبه البديع الجريء في تناول شتى القضايا الفلسفية الفكرية، فكلامه كان منطيقيّاً واضحًا. وكذلك أعجبني كتابُه الذي كان موضع درساتنا في تلك السنة، عنوانه: "ثورة العقل في الفلسفة العربية"[١]. وكان لهذا الكتاب تأثير واسع المدى في توجهي الفكري. فقد فتح عقلي وذهني نحو العالم العربي الإسلامي الذي كان قد بدا حتى ذالك الحين عالمًا مُغلقًا للبحث العقلي والعلمي، بعيدًا عن عالمنا الغربي الحديث المتجدد. فقد رأيت في الدكتور عاطف العراقي رجلَ العقل، والتنوير والحوار بين الحضارات، مما جذب انتباهي إليه واهتمامي بأعماله. والواقع أن عاطف العراقي يدافع في كتابه هذا عن العقل

(١) عاطف العراقي، ثورة العقل في الفلسفة العربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨.

وعن دوره البناء في تكوين فكر مستنير ضد من كان يسميهم "بأشباه المثقفين"، الذي يسخرون من العقل ودوره في الحياة البشرية بسبب تمسكهم بالماضي وأنصاره الرجعيين. والواقع، كما سأكتشفه فيما بعد، إنها لمعركةٌ فكرية خطيرة جدًّا لا تزال دائرة في داخل العالم العربي الإسلامي بين التيارات السلفية وتلك المتجددة، معركة لم تهدأ حتى الآن. وبعد الحصول على درجة الليسانس تركت الخرطوم ودعيت إلى القاهرة، فانقطع فترة ما التواصل بيني وبين الدكتور عاطف العراقي.

١-٢ في القاهرة مع الأب د. جورج شحاتة قنواتي: .منذ سنة ١٩٧٩ حتى وفاته ٢٠١٢:

إلا أنني، عندما انتقلت إلى القاهرة، كشفت جانبًا آخر من شخصية د. عاطف العراقي وهو صلته الحميمة التي كانت تربطه منذ وقت طويل مع مفكر مصري آخر، ضليع في الفلسفة الإسلامية، هو الأب الدكتور جورج شحاتة قنواتي. وكان هذا بدوره رجلَ الحوار بين العقل والإيمان، بين الحضارات والأديان، فله في ذلك كله مشوار طويل، واسع الأطراف ومتعدد الأبعاد. فعرفت حينذاك منبع من منبعاً فكر عاطف العراقي المستنير. فهذا الفكر المستنير لم يأت له صدفة أو هدية جاهزة من السماء، بل كان نتيجة دراسة طويلة متأنية في المصادر الأولى للفكر البشري بصفة عامة، و الفكر العربي الإسلامي بصفة خاصة. هكذا عرفت أن دافعه القوي نحو هذا الانفتاح الواسع الذي يُعتبر من أبرز السمات لفكر عاطف العراقي، والذي كان لا يمل أن يعترف به في كل مناسبة، أتى هذا الدافع القوي له من أستاذه الجليل الأب د. جورج شحاتة قنواتي. والجدير بالذكر أن عاطف العراقي عاش فترة من حياته في الدير نفسه الذي كان الأب جورج شحاتة قنواتي مقيمًا فيه. هكذا، دخلت أنا أيضًا في دائرة نُدماء فكر الأب جورج قنواتي المتفتح المستنير، فأصبح ديرُه بيتًا نتلاقى فيه ونتبادل في جوٍّ يسوده الإخاء الإنساني والديني مختلف القضايا الفكرية.

عند ذلك، تجدد تواصل المودة والتعاون بيني وبين عاطف العراقي. ومنذ ذلك الحين تقابلنا في الكثير من المناسبات الفكرية المختلفة، فعرفته أكثر فأكثر رجلاً مستنيرًا مدافعًا عن البعد العقلي في الفكر العربي الإسلامي ضدَّ ما كان يسميه بـ"تيارات الفكر التراجعي والظلامي". وله في ذلك سلسلة طويلة من الكتب والمقالات، الجدير بالذكر أن عاطف العراقي استمر جاهدًا في نضاله هذا رغم ما كلفته هذه الأمانة لضميره الإنساني ولالتزامه بالفكر التنويري الحضاري من الصعوبات، بل من المعارضات العديدة والعنيقة من القريب

والبعيد، حتى استُدْعِيَ للمُحاكمة بسبب حريته الفكرية كما حصل لبطله، وهو المفكر والفيلسوف العقلاني العظيم، أبو الوليد ابن رشد، الفيلسوف الأندلسي العقلاني المعروف.

٢- الإنسان والمفكر[١]:

لا يمكنني أن ألخِّص فكرَ عاطف العراقي الفلسفي وتوجهَه الإنساني والحضاري في بعض السطور لمساحته الواسعتها وتعدده المتنوع، إلا أنني أُشير هنا فقط إلى بعض الكلمات المفتاحية لمنهجه النقد الفلسفي العقلاني، وهي: ابن رشد والعقل، التنوير والانفتاح الحضاري، والرؤية المستقبلية بين تقدم تنويري وتراجع ظلامي.

٢-١: ابن رشد والعقل[٢]:

يعتبر عاطف العراقي من الدارسين البارزين لمذهب ابن رشد الفلسفي ومن أنصار فكره التنويري الذي لم يكن قد سبق فيه غيره من الفلاسفة والمفكرين. والواقع أن ابن رشد يمثل في نظر عاطف العراقي خير مثال لاستعمال العقل النقدي في الفكر الفلسفي، فيقول في هذا الصدد:

"نجد فكر ابن رشد معبرًا عن حسٍّ نقدي، والنقد من أخص خصائص الفلسفة والتفلسف... وكان في نقده معبرًا عن تمسكه بكل ما هو عقلاني تنويري، ومبتعدًا تمامًا عن فكر الظلام وحياة الظلام. لقد كان ابن رشد عالِمًا وطبيبًا، بالإضافة إلى كونه فيلسوفًا، ورأى أن الواجب يقتضي الكشف عن أخطاء الذين ذهبوا إلى القول بعدم وجود علاقات ضرورية

---

(١) نأخذ أفكاره الرئيسة من كتابين كتبهما كملخص لمذهبه الفكري، هما: العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر، المؤسسة للنشر، القاهرة، ١٩٩٥ (= العقل والتنوير)؛ ---، ابن رشد فيلسوفًا عربيّا بروح غربية، دار مصر المحروسة، القاهرة، ٢٠٠٨ (= ابن رشد).

(٢) أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد الجَد (من مواليد٥٢٠هـ /١١٢٦م بقرطبة – وتوفي ٥٩٥هـ /١١٩٨م بمراكش)، ويسميه الأوروبيون (Averroes)، وهو اشتهر باسم ابن رشد الحفيد تمييزًا عن جده هو ابن رشد الجد، الذي كان هو أيضًا فقيهًا مشهورًا. وقد صار ابن رشد الحفيد فيلسوفًا وطبيبًا وفقيهًا وقاضيًا وفلكيًّا وفيزيائيًّا، وهو من أصل عربي مسلم أندلسي. نشأ في أسرة من أكثر الأسر وَجاهة في الأندلس والتي عرفت بالمذهب المالكي، وحفظ موطَّأ مالك وديوان المتنبي، ودرس الفقه على المذهب المالكي والعقيدة على المذهب الأشعري. يعد ابن رشد من أهم فلاسفة الإسلام، دافع عن الفلسفة وصحح العلماء والفلاسفة السابقين له من أمثال ابن سينا والفارابي والغزالي، مركِّزًا نظرياته في فلسفة أرسطو. قدمه ابن طفيل لأبي يعقوب خليفة الموحِّدين فعينه طبيباً له، ثم قاضياً في قرطبة. وبعد ذلك تولّى ابن رشد منصب القَضاء في أشبيلية، وأقبل على تفسير أعمال أرسطو، تلبية لرغبة الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف. إلا أن ابن رشد تعرض في آخر حياته لمحنة حيث اتهمه علماء الأندلس والمعارضون له بالكفر والإلحاد، ثم أبعده أبو يوسف يعقوب إلى مراكش حيث وافته المنية سنة (٥٩٥هـ /١١٩٨م).

بين الأسباب والمسببات. وكان يؤمن بأن البرهان العقلي يُعَدُّ أسمى صور الأدلة، ومن هنا نجده يتجه بكل قوته نحو نقد الأدلة الخطابية التي يلجأ إليها عامة الناس وأشباه المثقفين".
(ابن رشد، ص١٢).

"فلنحتفل إذن بأفكار أعظم فلاسفتنا، ابن رشد، حتى نضع في اعتبارنا أن واجبنا المقدس هو الدفاع عن التنوير، والتمسك بالعقل، وغرس الروح النقدية، وكلها دروس استفدناها من ابن رشد" (ابن رشد، ص١٤).

وقد يطول الكلام بنا إذا أردنا أن نلخص تبصرات عاطف العراقي في فلسفة ابن رشد ودوره الرائد في إيقاظ الفكر الأرسطي المؤسَّس أولاً وأخيرًا علي العقل والبرهان العقلاني. فيتأسف عاطف العراقي على الإهمال الذي أصاب الفكر الرشدي على أيدي المفكرين الإسلاميين تحت ضغط الكثير من التيارات الدينية الأصولية الرجعية التي شلت الفكر العربي الإسلامي قرونًا طويلةً، بينما استُقبِل الفكر الرشدي في الغرب وصار من أهم العناصر التي ساعدت في النهضة الأوروبية في بداية العصر الحديث في أوروبا، ويقول في هذا الصدد:

"لقد سخَّرنا من ابن رشد حين أخذنا نتحدث عن قضايا وهمية زائفة كقضية الغزو الثقافي، وأخذنا بالهجوم على الحضارة الأوروبية. نعم، سخرنا وأهملنا فيلسوفنا ابن رشد الذي فتح الطريق أمام الفكر العلمي العقلاني، والذي نحن في أمسِّ الحاجة إليه الآن. أهملنا دعوته وكأنه أطلقها في وادٍ غير ذي زرع، حتى وصلنا نحن العرب إلى حالة يُرثى لها. ولن نفيق من تلك الحالة أو هذا المصير، إلا بأن نقوم بدَكِّ أرض التقليد والظلام دَكًّا. ولن نسلك طريق الصواب إلا إذا اعتقدنا بأن الخير كل الخير هو النظرة المتفتحة، النظرة التي تقوم على تقديس العقل بحيث نجعله معيارًا وأساسًا لحياتنا الفكرية والاجتماعية، وحتى يصبح عالمنا العربي مستعدًا للدخول في قرن جديد، هو القرن الحادي والعشرين".
(ابن رشد، ص ١٣)

٢-٢: من ابن رشد إلى عصرنا الحالي وقضاياه الفكرية:

إلا أن عاطف العراقي لم يكن ليكتفي بتمجيد ابن رشد في ماضيه، إنما يراه مؤهَّلاً لكي يكون مُلهِمًا لفكر تنويري متجددٍ يحتاج إليه الفكر العربي الإسلامي المعاصر أشد الاحتياج، فيقول بشجاعة مُدهشة:

"وإذا أردنا لأنفسنا الحياة، إذا أردنا تجديد فكرنا الفلسفي والعربي، فينبغي علينا أن نستمع إلى صوت ابن رشد، صوت الأستاذ، صوت عميد الفلسفة العقلية في عالمنا العربي،

هذا ما نقوله اليوم ونحن نحلل هوية فكر ابن رشد، هوية فلسفتنا، وكيف أنها أساسًا تُعد فلسفة عربية حتى لا ننظر إليها من خلال المنظور التوفيقي الذي باعد بيننا وبين الالتزام بخصائص الفكر الفلسفي، فهل يا تُرى سيجد هذا القول من جانبنا صداه، هل سيجد آذانًا صاغية في عالمنا العربي المعاصر من مشرقه إلى مغربه؟. ومن المؤسف له أننا نبحث اليوم عن حلول للكثير من مشكلاتنا، في الوقت الذي قدم لنا فيه ابن رشد ومنذ ثمانية قرون، المفتاح أو المنهج الذي يساعدنا على حل هذه المشكلات". (ابن رشد، ص ١٥)

٣: التنوير الحضار:

٣-١: ثورة فكرية وثقافية عميقة:

وبناء على ذلك فإن عاطف العراقي يرى أنه لا بد هناك من ثورة فكرية وثقافية عميقة على الشكل الذي حدث في أوروبا في عصر النهضة، عند انتهاء العصور الوسطى، فيقول في هذا الصدد:

"إننا في عصر ثورة المعلومات وثورة الكمبيوتر فهل من المعقول أن نتحدث عن ظاهرة خيالية هي ظاهرة الغزو الفكري، وذلك في الوقت الذي أصبح العالم فيه قرية صغيرة. أعتقد أننا إذا قلنا بما يسمى بالغزو الفكري أو الثقافي، فإن معنى ذلك أننا سنقضي تمامًا على أي أمل في التقدم نحو الإبداع، فالتنوير لا يمكن أن يتحقق إلا في جو الحرية والانفتاح على أفكار الآخرين في دول العالم من مشرقه إلى مغربه". (ابن رشد، ص ٢٣).

إذن، فهناك حاجة إلى حركة تنويرية تقوم على القاسم المشترك بيننا نحن البشر، وهو العقل، إلا أن هذه الحركة التنويرية تجد الكثير من العقبات من جانب بعض التصورات الدينية الأصولية التي تخلط بين الدين والسياسة فتعرقل حركة الفكر الحُرّ. فيقول عاطف العراقي في هذا الصدد:

"فمن عوامل عرقلة التنوير: الخلط بين الدين والسياسة، ومن عوامل عرقلة الإبداع أننا ما زلنا ننظر إلى التنوير كأنه رِجْس من عمل الشيطان، وأنه مرادف للكفر والتكفير. ومن عوامل عرقلة التنوير: الفصل بين التعليم الديني والتعليم المدني، ويجب القضاء تمامًا على هذا الفصل، إذ كيف نقول بالمجتمع الواحد، وفي الوقت نفسه نفصل بين تعليم وتعليم". (ابن رشد، ص ٢٣)

والواقع إن هذه الحركة التنويرية تلمس قضايا إنسانية خطيرة قد تُزعج بعض الجهات السياسية، فمن تلك القضايا الإنسانية، يذكر عاطف العراقي:

"هذه النظرية التنويرية تقوم أساسًا على احترام حقوق الإنسان والدفاع عن حريته، إذ لا يمكن تصور المستقبل وسط الأغلال أو القيود، فلنوفر المناخ أولاً وبعد ذلك نبحث عن المفكرين في كل المجالات العلمية والفكرية بوجه عام، فلنسْعَ بكل قوتنا نحو التنوير، لأنه لا يمكن تصور مستقبل (إنسانيّ) بدون تنوير". (ابن رشد فيلسوفًا عربيًّا، ص ٢٥).

"وإذا كنا نتحدث اليوم عن قضايا كالتراث، والأصالة والمعاصرة، والتجديد، وموقفنا من الحضارة الغربية، وموقفنا من العقل وعلاقته بتراث الأقدمين، أقول إذا كنا نتحدث اليوم عن هذه القضايا والجوانب، فإن من الضروري- فيما أرى من جانبي- الرجوع إلى تراث الفيلسوف ابن رشد، إذ إنني أعتقد أن الآراء التي قال بها تفيدنا غاية الفائدة في تحديد موقفنا من أكثر هذه القضايا". (ابن رشد، ص ٢٨).

"لقد كان ابن رشد حريصًا على التزود من كافة الثقافات، سواء كانت ثقافات عربية داخلية أو كانت ثقافات أجنبية يونانية، ولم يقم بالهجوم على الثقافات الغربية الأجنبية لمجرد أنها أتت من بلاد الفرنجة، وهذا يدل على عقليته المتفتحة. ويقيني أننا الآن وأكثر من أي وقت مضى وفي أمس الحاجة إلى أن نفعل مثل ما فعل ابن رشد. إننا لو كنا قد فعلنا مثل ما فعل (هو) منذ ثمانية قرون، لكنا قد وجدنا بيننا في عالمنا العربي أكثر من فيلسوف، ولكنَّا قد تقدمنا خطوات نحو الطريق إلى العالمية، وهذا أفضل لنا من الدوران حول المحلية المُسرِفة في محليتها. أليس مما يدعو إلى الأسف أننا حتى الآن لم ننفتح على الفكر اليوناني بمثل الدرجة التي قام بها ابن رشد منذ ثمانية قرون. إننا حتى الآن في عالمنا العربي لا نجد ترجمات عربية لبعض أمهات الفلسفة اليونانية وعلى رأسها كتاب "الميتافيزيقا" لأرسطو. بل إن المصيبة الكبري أن أكثر مؤلفاتنا في مجال الفلسفة اليونانية تُعد جهلاً على جهل لأنها تقوم على التسرع وليس (على) النظرة النقدية العميقة". (ابن رشد، ص ٣٣).

إذن، يرى عاطف العراقي أن ابن رشد يمثل هذا البعد الحضاري المهم حيث تنفتح كل حضارة نحو الأخرى في عملية التعارف والتبادل والتعاون. ويرى أيضًا أن هذا البعد الحضاري من أهم ما يحتاج إليه العالم العربي الإسلامي لكي ينجو من قبضة الكثير من التيارات الدينية الأصولية التي تُخْضِع الدين لأغراض سياسية خطيرة. ومن المعروف أن هذا التقوقع الحضاري، أو قُلْ هذه القبلية الثقافية الدينية، تُنتج الكثير من التيارات العنيفة المدمرة في زماننا الحالي. ونعرف أن موقفه الشجاع هذا عَرَّض عاطف العراقي نفسه للكثير من الاتهامات التي أدت به إلى المثول أمام محكمة المنصورة، بالحجة نفسها التي دفعت قبله بثمانية قرون فيلسوفه المحبوب ابن رشد إلى الحكم عليه بالكفر والنفي وإحراق كتبه في ميدان مدينته إشبيلية، ولجوئه إلى مراكش حيث وافته المنيه، وهي تهمة حرية الفكر والضمير.

٣-٢: رؤية مستقبلية بين تقدم تنويري وتراجع ظلامي:

وعلى هذه الأسس الفكرية يقدم عاطف العراقي ما يسميه بـ"الرؤية المستقبلية"[١]. وهذا لأن الإنسان المعاصر، أي الإنسان فيما بعد الحداثي، يجد نفسه أمام إشكاليات فكرية وحياتية جسيمة، قد تخاطر بوجوده ذاته. نذكر منها: العولمة التسويقية وإشكالياتها الاقتصادية، قضية حقوق الإنسان وأحوال الظلم والفقر السائدة في الكثير من البلاد في عالمنا المعولَم، مع خطر التكنولوجيا المتطورة التي قد وصلت إلى درجة التكنوقراطية المسرفة والتصرف اللامسئول بالقيم الإنسانية الأساسية، ومع قضية البيئة وإشكالياتها الدرامية،... إلخ من القضايا الأخرى.

فلا يمكن أن يجد الإنسان المعاصر علاجًا فعالاً لتلك القضايا الجسيمة إلا باللجوء إلى منهج عقلاني يضع الإنسان وقِيَمَه الإنسانية الأساسية في المقام الأول، وخاصة فيما يتعلق بحرية الفكر والضمير. والواقع إن الإنسان إذا فقد بعده الإنساني هذا، فقدْ فَقَدَ إنسانيته لكي يصير، ومن يدري؟ ربما ضَربًا من الروبوت المحرك من طرف السوبر–روبوت كامل التقنيةً، ولكن مع الفقد الكامل لإنسانيته؟

ولا شك أن الدكتور عاطف العراقي كان في كل ذلك يرفع صوت ضميره الصادق وتصرفه المخلص منذرًا بأخطار العولمة اللاعقلانية والرجعية المظلمة كمقدمة للدعوة إلى الفكر المستنير الذي كان الفيلسوف ابن رشد من أبرز دعاته.

لهذا كله أجد في فكر وعمل عاطف العراقي، وخاصة في توجهه العقلاني التنويري، أسسًا قوية بإمكانها أن تفتح أبواب البحث العلمي لإيجاد بعض الحلول لتلك الإشكاليات الجسيمة، ولبناء عالمًا أفضل في قريتنا العالمية.

وختامًا لهذا الحديث عن المفكر المصري العظيم، د. عاطف العراقي، يحلو لي أن أذكر عبارة شهيرة لأستاذه الأب د. جورج شحاتة قنواتي الذي كثيرًا ما كان يرددها في كل مناسبة: "لا دين بدون ثقافة، ولا ثقافة بدون دين". فأقول من جانبي، على شكل القول الرومانيٍّ الشهير: "العقل السليم في الجسم السليم"، فأقول: "الدين السليم في العقل السليم؛ فإذا فسد العقل، فسد الدين".

---

(١) انظر كتابه: العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨.

٤- ملاحظات نقدية:

لقد أقر د. عاطف العراقي مرارًا أن المنهج العقلي يتضمن النقد العقلي، وأن كل قضية فكرية، وفي مقدمها القضايا الفلسفية، يجب عرضُها بنور العقل. والواقع أن التقدم الفكري في التاريخ البشري قد تحقق دومًا من خلال المنهج العقلي، فأرسطو انتقد أفلاطون ومن سبقه من الفلاسفة، وتوما الأكويني انتقد أوغسطين ومن سبقه من المفكرين المسيحيين، الفلاسفة المحدثون انتقدوا الفلاسفة القدماء... وإلخ من الحركات النقدية في الفكر الإنساني عبر تاريخه الطويل شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا. فالتاريخ البشري يثبت باستمرار أنه من دون نقد ليس هناك تقدم.

لذلك، أريد أن أقدم هنا بعض الملاحظات النقدية على منهج د. عاطف العراقي قصدًا التعميق والتوسيع لنظرياته الفلسفية، وليس إبطاله أو محوه. فكل ما قاله صحيح، لا شك.

١- وأول ما أُخذ على د. عاطف العراقي أنه اعتمد على المنهج الرشدي اعتمادًا يكاد يكون كليًّا، وكأن ابن رشد وصل إلى قمة المنهج العقلاني في كل جوانبه. والواقع إن المنهج الرشدي أيضًا كان ناقصًا من جوانب عديدة. مثلًا، اعتمد ابن رشد على الترجمات العربية القديمة لأعمال أرسطو دون مقاربة نقدية. إلا أنه، كما اتضح من الدراسات الحديثة للفيلسوف اليوناني، كانت في تلك الترجمات القديمة الكثير من الأخطاء والنقصان والتحريف والاختلاط مع غيره من للفلاسفة اليونانيين، خاصة مع أفلوطين. مشهورًا أصبح ما حصل للكتاب المسمَّى بـ"أثولوجيا أرسطوطاليس " الذي قُبل عند العرب وكأنه من مؤلفات أرسطو، إلا أنه في الواقع فصول ومقتطفات منتزعة من التاسوعات الأفلاطونية. فاشتهر هذا الكتاب عند المسلمين، لأنه كان يقدم إثباتًا واضحًا لفكرة التوحيد، فكان لهذا الكتاب أثر كبير في تطور التصوف الإسلامي أيضًا، وهلمَّ جرًّا من أمثال هذه الأخطاء. فقد طور العصر الحديث منهجًا نقديًّا تاريخيًّا متكاملًا مما أدى إلى التصحيح للكثير من المعلومات التاريخية السابقة الخاطئة، فلا يجوز الآن كتابة دراسة علمية حول كتاب أو مؤلف بدون مقدمة نقدية تاريخية له.

٢- وهناك ملاحظة أخرى مهمة على منهج د. عاطف العراقي، حيث يدعو إلى الرجوع إلى المنهج العقلاني الرشدي لإصلاح أوضاع عالمنا المعولم، وخاصة العالم العربي الإسلامي. يبدو أن عاطف العراقي ينظر إلى العقل كمبدأ كلي وفعال، له التحكم المطلق في سائر الملكات الإنسانية دون مقاومة. وهذا العقل العقلاني الرشدي يقترب جدًّا من العقل الديكارتي (نسبة للفيلسوف الفرانسي رينيه ديكارت – ت١٦٥٠) المجرد

المطلق. وهو نقيض للعقل الوجداني، أي القلب، كما وصفه ند ديكارت وهو الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال (ت١٦٦٢) الذي قال:"القلب له أسباب لا يفهمها العقل". الواقع إن العقل البشري التاريخي ليس عقلًا مجردًا متعاليًا على سائر ملكات الإنسان، بدون شروط وقيود. عكس ذلك، فالعقل البشري التاريخي يأتي دائمًا مشروطًا ومرتبطًا بالعديد من الشروط والقيود التي تأتي إليه من داخله، من وجدانه ومزاجه، ومن خارجه، من ظروف حياته الاجتماعية والاقتصادية...إلخ من تلك الدوافع الداخلية والخارجية. وهذا ما أثبتته التيارات الحديثة، خاصة تلك البعد الحداثية.

وأخيرًا، فلا شك أن الدكتور عاطف العراقي يمثل حلقة أساسية من حلقات مسيرة البشر نحو اكتشاف الحقيقة بصورة أعمق وأفضل، فليبقَ في قلوبنا ذكرًا طيبًا وحثًا لنا للسير معه نحوها.

الأب أ. د. جوزيف سكاتولين